الأمة في فلسفة مصطفى الأشرف
الدكتور موسى معير ش

الدكتور موسى معيرش

المركز الجامعي خنشلة .

يعد مصطفى الأشرف في الجزائر المعاصرة أكثر من علم من أعلامها البارزين, فهو بالإضافة إلى كونه مفكرا فهو احد قادتها الثوريين الذين تنقلوا بين تيارات الحركة الوطنية, فقد كان في مرحلة من المراحل مناضلا في حزب الشعب الجزائري, كما انظم فيما بعد إلى حركة انتصار الحريات الديموقراطية.

وما إن اندلعت ثورة نوفمبر حتى كان من رجالاتها الأوائل, بل انه كان من الزعماء الخمسة الذين اختطفتهم السلطات الفرنسية في حادثة الطائرة المشهورة, ولما جاء الاستقلال أصبح من قادتها السياسيين ورجال دولتها فتولى العديد من المناصب سواء كسفير للجزائر أو كوزير لأحد أهم وزارتها, ونقصد بذلك وزارة التربية.

إلا أن مكانة الأشرف تدعمت أكثر باعتباره علاوة على ما سبق ذكره احد منظري الجزائر الثائرة والمستقلة على حد سواء.

ودفعت المكانة السياسية والنظالية من جهة, والمكانة العلمية من جهة أخرى إلى إن تكون له مساهمات تنظيرية كبرى في مواثيق الجزائر الكبرى سواء في مؤتمر طرابلس أو في ميثاق 1976 م التي حملت الكثير من أرائه حول العديد من القضايا, وخصوصا نظرته لمفهوم وطبيعة الأمة وهو ما أثار الكثير من الجدل والنقاش حول حقيقة نظرة الأشرف ومبرراتها وفي بعض الأحيان وخلفياتها, وهذا ما تحاول هذه الدراسة مناقشته وتوضيحه.

الأشرف المفكر ورجل الدولة:

رغم المكانة الهامة العلمية والتاريخية والسياسية التي يتمتع بها مصطفي الأشرف علي جميع المستويات إلا أن انه يضل مجهولا لدى الكثير من المثقفين فضلا على الطلاب وعامة أبناء الجزائر من الجيل الذي عمل الأشرف الإعداد له وقضي معظم حياته في سبيله, وشانه شأن كثير من أبناء الجزائر الآخرين الذين أعطوها عصارة فكرهم وزهرة شبابهم , ونستهم بل وتناستهم وأهملتهم, وكأن البلد ليست واسعة ولا تتسع لجميع أبنائها الذين أحبوها ويحبونها.

ومن هنا تكمن أهمية التعريف بهذا الرجل الإنسان والمثقف المناضل ورجل الدولة الملتزم.فمن هو الأشرف وماهي أعماله الفكرية وفيما تجلت نشاطاته السياسية؟

في مدينة سيدي عيسى جنوب شرق ولاية مسيلة بمنطقة الحضنة التاريخية والأصيلة ولد مصطفى الأشرف في السابع من شهر مارس في العشرية الثانية من القرن العشرين, أما عن سنة ميلاده بدقة فهناك خلاف حولها إذ يذهب معجم أعلام الجزائر مثلا إلى القول أنها كانت سنة 1919م(1) , في حين جاء في مقالة"محمد غالم" الموسومة" مصطفى الأشرف وثورة الجزائر"انه ولد سنة1917 م, ولست ادري سبب هذا الاختلاف , خاصة أن الدراستين السالف ذكرهما صادرتين عن مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية بجامعة منتورى قسنطينة (2)

وأما عن والده فيبدو انه ينتمي إلى احد أهم أعراش المنطقة , وإذا كان للألقاب دلالات أحيانا, فان لقب للاشرف يبدوا انه يعود إلى احد القبائل العربية الشريفة, وخصوصا إذا ما ارتبط اللقب بالاسم الذي هو احد أسماء النبي ,كما أن المكانة التي كان يتبوؤها والده تدل على ما نقول خصوصا وانه كان قاضيا في محكمة عين بوسيف, و نكاد نجزم فيما ذهبنا إليه خاصة أن خزانة والده كانت زاخرة بالكتب الإسلامية والعربية التي نهل منه الطفل الأشرف قبل أن ينال الشهادة الابتدائية حيث كان قد قرأ "المعلقات" كتاب العبر لابن خلدون, بعض أعمال أدباء المهجر أمثال جبران خليل جبران , وبعض أعمال ورويات جرجي زيدان.

وقد كانت البيئة الريفية هذه عاملا بارزا في ربطه بثقافته العربية والإسلامية, التي تبرز في كتاباته المختلفة فيما بعد وخاصة في كتابه المشهور " الجزائر الأمة والمجتمع", وهذا رغم كثير من الانتقادات التي حاولت أن تنفي عنه ارتباطه العربي والاسلامى, بحكم بعض مواقفه السياسية والإيديولوجية.

أما من ناحية أمه فقد كانت عاصمية, جاءت من بيئة أكثر تحضرا من سيدي عيسى, ودون شك فلم ترضعه حليبا فقط وإنما أرضعته تربية وثقافة خاصة وافدة على البيئة التي ولد فيها.وقد تجلى في مطالعاته المختلفة الأولية حيث يقال انه قرأ كلاسيكيات الأدب الفرنسي في مرحلة مبكرة من دراسته, ومن هنا يمكننا الحديث عن مصطفى الأشرف الجامع بين الثقافة العربية والفرنسية (3) ,والجامع بين البيئة الحضرية والبدوية من ناحية الأسرة. وقد مارست هذه الثنائية دورا بارزا وأساسيا في تكوين شخصيته وهذا ما جعل إحدى الثقافتين تنازعانه يميل تارة هناك وأخرى هنالك ولكن في كل الأحيان كانت الأصالة تشده والمعاصرة تقوده, وهو ينتقد مرة هذه وأخرى تلك.

وقد حاول مواصلة دراسته الثانوية بالجزائر العاصمة مابين سنة 1930و1934موحيث كان من المتفوقين كما يقول محمد غالم:" التحق بثانوية ابن عكنون بالجزائر العاصمة فكان من الطلبة المتفوقين, فكان دائما ضمن الخمسة الأوائل , غير أن مشاكل الإقامة ألزمته ...مغادرة الثانوية والالتحاق بمسقط رأسه فنصحه أبوه بالتسجيل في المدرسة الثعالبية – المعهد العربي الفرنسي – حيث زاول دراسته إلى غاية سنة 1940"(4), ويقول معجم أعلام الجزائر أنه تابع دراسته الثانوية و العليا بباريس حيث تحصل من جامعة السر بون على شهادة الليسانس في الأدب .

وبعد ذلك عاد إلى الجزائر والتحق بالتدريس ببعض ثانويات الغرب الجزائري فشغل أستاذا

للأدب العربي بثانوية مستغانم ثم بثانوية لويس الكبير بمعسكر (5).

أما مصطفى الأشرف المناضل السياسي فقد بدأ مبكرا حيث انضم إلى حزب الشعب الجزائري سنة 1939 ليكلف بمهام النوعية، فكتب في هذا الإطار العديد من المقالات التي أعطته شهرة واسعة وعرفه المثقفون الجزائريين بالأخص ,أما الموضوعات التي عالجها فمتنوعة: سياسية واقتصادية وتاريخية وقد نشر معظمها في جريدتي البرلمان الجزائري والنجم الجزائري.

وقد استقال من التدريس فيما بعد ليتفرغ لحركة الانتصاريين سكرتيرا لكتلتها البرلمانية وقد التحق بجبهة التحرير الوطني مبكرا حيث كلف بكتابة مقالات تدعوا إلى الانضمام للجبهة والدفاع عن القضية الجزائرية وقد كان ضمن الجماعة التي اختطفتهم فرنسا في حادثة الطائرة الشهيرة ليطلق سراحه سنة 1961 للأسباب صحية كما قيل.

أما بعد الاستقلال فكان رجل الدولة الكبير الذي تولى مناصب عدة أهمها:

1- سفير الجزائر في الأرجنتين سنة 1965.
2- ممثلا للجزائر في اليونسكو.
3- سفيرا للجزائر في البيرو.
4- وزيرا سنة1977.
5- أحيل على التقاعد سنة 1986.
6- عضوا بالمجلس الاستشاري سنة 1992.دون أن ننسى تولية إدارة مجلة المجاهد سنة 1962 بعيد الاستقلال مباشرة.

أما عن أعماله العلمية فهي على النحو التالي كما جاء في معجم أعلام الجزائر:

1- الأزمنة المعاصرة في أكتوبر 1956.
2-أغاني فتيات العرب عام1953 م .
3- الجزائر الآمة والمجتمع عام 1956 م وهو مجموعة مقالات كتبت في مراحل متباعدة، كتب بعضها في ا لفترة الاستعمارية بينما كتب البعض الآخر منها بعد الاستقلال منها:

الفصل الثاني: المعنون بالوطنية في البوادي والأرياف و الذي كتب في مارس 1955 م

الفصل الثالث: المعنون: الجوانب النفسية في الغزو الاستعماري وقد كتبه في جانفي 1976

الفصل الرابع : وقد كتبه في شهر فيفري ومارس سنة 1956 م ، وكان بعنوان مسيرة الجزائر نحو الحرية .

الفصل الخامس : وقد كتب في جوان 1955 م بعنوان مسيرة القومية التحريرية إلى الوحدة .

الفصل السادس: الاتجاه الثوري في المدن منذ 1830 وتنظيم المقاومة والكفاح وقد كتب في سبتمبر ، أكتوبر سنة 1956 م .

الفصل السابع : الخط الثابت في سلوك الاستعمار سياسيا و عسكريا وقد كتب في ديسمبر سنة 1960 وجانفي سنة 1961

الفصل الثامن : الجوانب المجهولة من الثورة الجزائرية وقد كتب في جويلية من عام 1961 م .

الفصل التاسع: الجزائر المستقلة من النكسة إلى الوحدة وقد كتبه في 7 أوت من عام 1962 م .

الفصل العاشر: وقائع و أفاق ثورية وقد كتبه بعيد الاستقلال أي في 24أوت 1962

أما الفصل الأخير فكان بعنوان نظرات اجتماعية حول الحركة القومية وحول الثقافة في الجزائر.

في حين أن الفصل الأول عنون ب "بين الاستعمار والإقطاعية" فقد صدر في شهر أفريل سنة 1954 م ، أما المقدمة فقد جاءت في ما يقارب الأربعين صفحة تشكل ملخص عام لمجمل الآراء التي نادى بها الأشرف وقد أنهى كتابتها في 22 جانفي 1965 م وتجدر الإشارة هنا إلى أن كل مقالات الكتاب كتبت قبل هذا التاريخ ماعدا الفصل الثالث الذي كتب في جانفي 1976 كما أشرنا سابقا. وأضيف إلى الطبعة التي بين أيدينا و الصادرة عن المؤسسة الوطنية للكتاب عام 1983 م .

كما كتب إضافة إلى ذلك مايلي:

1-كتاب بالتعاون مع عبد القادر جغلول صدر قي طبعته الأولى عن المركز الثقافي الجزائري في فرنسا سنة 1986 ومكون من249صفحة,وكان بعنوان: تاريخ ثقافة ومجتمع. وكان نصيب الاشرف في هذا الكتاب أربع مقالات هي:

-إطار عام لكتابات توضيحية لظواهر ثقافية في التاريخ والمجتمع,وقد نشر للمرة الأولى في جريدة الجزائر الأحداث سنة 1981م.

- قراءات للابن خلدون.
- ثورة , تاريخ , ثقافة.
-حول السينما الجزائرية.

2-كتابات تربوية حول الثقافة ,، التاريخ والمجتمع في الجزائر، وقد صدر عن المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية في الجزائر سنة 1988م ، ويتكون من 363صفحة، ويكون من ثلاثة عشر مقالة تتوزع على فترات زمانية مختلفة، إذ كتب المقال الأول مثلا سنة1968م والمعنون ب: تشريح وتوجيه الثقافة المعاصرة والشعبية في الجزائر: دراسات تعريفية،في حين صدر المقال الأخير بعنوان: دراسات سسيولوجيا حول ما بعد الحرب التحررية والإخفاقات المفاهمية في مواثيقها مع الضمير الثوري والذاكرة3 وكان هذا عام 1987م.

3-الجزائر والعالم الثالث اعتداءات مقاومة وتضامن دولي. وهذا عام 1991م عن منشورات بوشان الجزائرية.

4-أدب الحرب :كتابات تمهيدية، دراسة ومقدمة، وقد صدر عن منشورات بوشان عام 1991م.

5-أسماء وأماكن ذاكرة لجزائر منسية:ذكريات الطفولة والشباب، وقد نشرته دار القصبة عام 1998م.وغيرها من الأعمال الأخرى.

منهج الأشرف:

يمتاز مصطفى الأشرف بقدرة كبيرة على فهم الوقائع وتحليلها وقد تجلى ذلك في قراءاته المختلفة لطبيعة المجتمع الجزائري أثناء الاستعمار فمن خلال مثلا حديثه عن الصراعات المختلفة بين ما يسميه بالحركات الشعبية والإقطاعية المحلية نجده لا يكتفي بعرض المسألة وإنما يتعدى ذلك إلى تقديم مواقفه الشخصية التي تحاول أن تقدم قراءات ملتزمة وفي الوقت نفسه منتقدة التفسيرات المعارضة حيث نجده يقول: "لئن كنا قد استطردنا في القول بعض الشيء، فما كان قصدنا سوى أن نلقي بعض الأضواء على الجو السياسي و الفكري الذي كان سائدا في الجزائر قبيل الاحتلال الفرنسي بمدة قصيرة، وأثناء المقاومة الوطنية ومن جهة أخرى، فقد عقدنا العزم — بكل تواضع — على أن نعيد النظر إلى القضية الجزائرية في القرن التاسع عشر من زاوية موضوعية، اجتماعية بالدرجة الأولى، مع تنبيه القارىء إلى النظريات السطحية المغرضة التي يروجها بعض المؤرخين. ونحن نرمي من وراء هذا، إلى شرح قضية الحركات الشعبية في البلدان غير المستقلة، في صراعها مع الإقطاعية المحلية التي تخدم الاستعمار، وتعمل جاهدة لتصد الشعب عن

تيار التحرر الاجتماعي، ذلك التحرر الذي لايتم الاستقلال إلا به. " (6).

كما يلاحظ عليه عدم تصريحه مباشرة بخصومه الذين يختلف معهم في منطلقا تهم وتفسيراتهم, وهنا نجده يشير إلى النظرية التي يقول بها هؤلاء وينتقدها كما هو الأمر في قوله:"باعتبار أن بعض الجزائريين أنفسهم أدى بهم الأمر-من حيث لا يشعرون- إلى تعزيز النظريات الاستعمارية من الوجهة القانونية, حينما قالوا بأن الاستعمار أمر حتمي قد تفرضه الخطة السياسية أو الحكمة الإلهية, وان هناك تفاوتا بين الشعوب في درجة الحضارة, وأنه توجد عوامل تحدد"القابلية للاستعمار"، وهذه القابلية هي نوع من أنواع الاستعداد.وإذا وجد لدى شعب من الشعوب في فترة ما من تاريخه، فإنه يصبح بصورة حتمية خاضعا لسلطة الأجنبي... وهذه الحجة تذكرنا بالحجة الانهزامية الباطلة التي كانت حكومة " فيشي " الفرنسية تحاول أن تبرر بها خضوعها، بعد انتصار النازية عليها." (7).

ومع مافي هذا المنهج من أسلوب حكيم في الرد على الخصوم دون تجريح إلا أن المنطق في بعض الأحيان يقتضى الاعتراف بالأمر الواقع والعوامل التي أوصلت إليه اذا ليس من الحكمة تماما تجاهل الحقائق والوقائع اذا كان خصومنا السياسيين والاديولوجيين الذين كشفوا عنها, ويبدو آن الأشرف يقصد مالك بن نبي صاحب نظرية القابلية للاستعمار, إلا أن الذي نتفق فيه هنا مع الأشرف ضرورة مقاومة الواقع والانتصار عليه, وليس تجاهله.

وبخصوص دور الزمن في تطوير الكثير من الآراء وتجاوز بعضها الآخر يعترف صراحة من انه خضع لهذا القانون, وهذا ما جعل الكثير من مقالاته الأولى تحوى بعض الآراء التي تراجع عنها فيما بعد, وتماشياء مع موقف الأشرف هذا يمكننا القول أنه لو أعاد النظر حاليا فيما كتبه وبعد التغيرات الداخلية في الجزائر والخارجية في العالم, وزوال كتلة وانفراد الولايات المتحدة بالعالم لربما أعاد كتابة العديد من النصوص ولطور الكثير من الآراء, وقديما قال الفيلسوف اليوناني الشهير هروقليطس:" انك لا تنزل في النهر الواحد مرتين فهناك مياه تجرى من حولك ابدأ".

وهذا ما يذهب إليه الأشرف في قوله:" إن هذه النصوص التي جمعناها بين دفتي هذا الكتاب, قد تبدو متناقضة من حيث الاتجاه العام, ومن حيث الأفكار والنظريات, وهذا التناقض أوضح ما يكون بين النصوص الأولى والنصوص الأخيرة, بسبب المدة الزمنية التي تفصل بينها, وهي عشر سنوات, ولكن هذا التناقض ليس إلا من حيث الظاهر, أو ربما ناتج عن تطور الأمور, وعن النظرة الجديدة التي أصبحنا نتلمح بها الأحداث بعد استقلال الجزائر "(8).

كما تمتاز كتابات بالجدل القوى والقدرة على مقارعة الحجة وهو ما يوضحه بقوله:" كل مافي الأمر أن حرصنا على دحض الحجج الباطلة, وكشف الحقائق الناصعة, وإعادة الحق إلى نصابه من الداخل, بعدما رأينا المؤرخين الفرنسيين يشوهونه من الخارج, أو يتنكرون له تماما"(9).

ولا يخفي الأشرف في كتاباته حرصه الشديد على الالتزام بما يكتب وفيما يكتب لأنه يعتقد انه يحمل لواء ورسالة تكمن في الدفاع عن الجزائر وتاريخها وقراءته بعين المناضل الملتزم, رغم انه يصرح أحيانا بأنه يلتزم الموضوعية,وفي أحيان كثيرة يصطدم هذا بذاك,وفي هذا يقول :" أقول

أن هذا الحرص ربما أضفي على هذه الدراسات طابع الالتزام"(10).

أما عن الموضوعية في كتاباته فيقول:"أن هذا العمل التحليلي الذي ركزنا فيه على التاريخ السياسي للجزائر, كأمة وكمجتمع, هذا العمل لم يخضع في اعتقادنا لأي اعتبار, ماعدا الاعتبارات الموضوعية التي يتقيد بها كل باحث. ولئن كان حكمنا قاسيا أحيانا... ولم يكن قصدنا من إيراده سوى خدمة الحقيقة التي اتخذناها رائد في الإدلاء بالشهادة النزيهة, وتسجيل الظاهرة الملحوظة النزيهة, واستخلاص العبرة من هذه الأحداث التي دخلت في سجل تاريخنا القومي"(11).

ومن هنا يمكننا القول إن كتابات الأشرف كانت تعتمد رؤية واضحة المعالم هدفها الأساسي إبراز الطابع المميز للجزائر كأمة ومجتمع مميزان عن الأمة والمجتمع الفرنسي وهو في هذا سلكا منهجا ملتزما بما يكتب محاولا فيه إتباع الموضوعية قدر الإمكان, مع العمل على تحليل الأحداث وتوجيهها.

الأمة ومقوماتها:

تكاد القضية التي تشغل مصطفى الأشرف في كتابه " الجزائر:أمة ومجتمع" إبراز الطابع المميز للجزائر, كأمة تامة التكوين, وإذا كانت هذه الفكرة تندرج ضمن السياق العام الذي يدور فيه فكره, فانه يثير كثير من التساؤلات, أهمها يدور حول الكيفية التي تكونت بها الأمة الجزائرية في نظره, والعناصر المكونة لها.

فما يقصد الأشرف بذلك؟

يبدو أن مصطلح الأمة في الفكر السياسي ومدلولاته حديث, حيث لم يظهر بهذا المفهوم الابعد الوحدتين الألمانية والإيطالية, إلا أن المصطلح من الجانب للغوي قديم وهو ليس موضوع بحثنا في هذا الموضع.

وقد عرف عبد المعز نصر في كتابه"في النظريات والنظم السياسية " الأمة بقوله:"ولقد تعدد تفسير مصطلح 'أمة' واستعماله عند المفكرين السياسيين والاجتماعيين, ولكننا نأخذ بوجهة النظر التي أكدها رينان في مقاله عن ماهية الأمة من أن الصفة الروحية هي الصفة المميزة للأمة. فالآمة أساسا مجموعة من البشر يجمعهم وعي خاص وشعور بانتماء أعضائها بعضهم إلى بعض، وينمو بينهم كما يقول لا سكي إحساس بالقرابة يربطهم جميعا في وحدة متفردة لها طابعها الخاص و تراثها الاجتماعي الذي يميزها وتتميز به في مجال الخلق و البناء الحضاري، ومن ثم فإن انجلترا تستطيع فقط أن تنتج شكسبير ود كتر على حين أن هناك صفات في فولتير وأخرى في كانط تمثل القومية في فرنسا وفي ألمانيا."(12).

أما الأشرف فينطلق من الموقف الذي يجعل من الجزائر امة مميزة يجمع بين أفرادها رابطة روحية تكونت عبر كفاح هؤلاء الطويل جعلها تصمد في وجه الاحتلال الفرنسي وتنتصر عليه أخيرا حيث يقول:" ومهما تصورنا الكيان الجزائري, كأمة متمثلة في دولة, أو أمة متمثلة في شعب, أو مجرد وطن قومي موحد الكلمة, فان الجزائر قد توفر فيها عاما أساسي جعلها تصمد طيلة130سنة,أمام دولة إمبريالية قوية , وترغمها على الرجوع إلي الحق"(13).

ويستمد الأشرف كثير من مفاهيمه عن الأمة من الفكر الغربي الحديث المتأثر بالفكر الماركسي رغم أن الشيوعيين في الجزائر كانوا يرون مع موريس طوارز بان الجزائر لا تكون امة, إلا انه مع هذا يستند إلى مواقف اقرب إلى

تصوره عندما يقول:" مما جعل بعض منظريها المتنورين, والمتأثرين بالفكر الماركسي ينظرون إلي تاريخ الجزائر الحديثة نظرة لا تخلو من العنصر العاطفي, وخاصة فيما يتعلق بمفهوم الأمة و واقعها قبيل عام1830 وبعده... ولنا في التاريخ المعاصرة أمثلة عن حروب وطنية خاضتها بعض البلدان الكبرى التي اتخذت الثورة كمنطلق عقائدي"(14).

كما يستعير تصور المفكر الفرنسي لوسيان فيبر الذي يبرز في كتاباته الكيفية التي نشأت بها الأمة الفرنسية ويرى أن هذا التصور ينطبق تماما عن تكوين على الجزائر بدقة حيث يقول في هذا السياق:" ولا يسعنا عندما نسمع لوسيان فيبر يشرح كيف نشأت فكرة الأمة في فرنسا في القرن الثامن عشر, لا يسعنا إلا أن نشاطره الرأي, ونقول بكل تواضع بأن هذا الأمر ينطبق علي الجزائر بالذات"(15).

وعن مقومات الأمة يستفيض الأشرف في الحديث, منتقدا تارة مبرزا دور كل مقوم من مقوماتها تارة أخري,فماهي هذه المقومات ومادو رها في تكوين الأمة عنده؟ وسنكتفي هنا بالحديث عن مقومين اثنين هما الدين واللغة.

أولا الدين:

لا يخفي الأشرف في تصوره لتكوين الأمة الجزائرية الدور الذي لعبه الدين الإسلامي في ذلك, وفي الحفاظ علي كيان الأمة, كما لا ينكر أن الاحتلال الفرنسي في الجزائر كان صليبيا وتبشيريا أيضا, إلا أنه لا يرى انه العامل الوحيد للمحافظ على كيان الجزائر, أو الدافع لغزوها.وهو ما يفهم من قوله:" ما من شك أبد أن العاطفة الدينية قامت في بداية الأمر بدور هام... غير أنها لم تكن هي وحدها التي دفعت الشعب إلي الكفاح(16).

كما يؤكد أن الجزائريين في دفاعهم عن وطنهم لم يكن التعصب محركهم عندما أعلنوا الجهاد:"أما إعلان الجهاد – وهو الآمر الذي يتذرع به البعض كلما أرادوا أن يطعنوا في الإسلام – فلم يكن في الواقع ، ومن حيث المبدأ ، إلا حربا دفاعية . وما من أحد يستطيع أن ينكر بأن الحرب التي خاضها الأمير عبد القادر ، وكذلك الثورات التي اندلعت بقيادة الزعماء الجزائريين إلى غاية 1884 م ، ما قامت إلا من أجل تحرير التراب الوطني . وإذا كان بعض الزعماء قد أعلنوا الجهاد ، فما كان ذلك منهم إلا لكي يدفعوا الناس إلى خوض غمار حرب فرضها الأجنبي الدخيل . إن هذا النداء

من أجل إنقاذ " الأمة الإسلامية " ليس إلا شعارا يضاهي الشعار الذي رفعته الثورة الفرنسية ، واعتبرته من أقدس مقدساتها ، ألا وهو الوطن في خطر "(17).

أما عن التبشير المسيحي في الجزائر فيقول الأشرف:" وبعد أن تحدث بوجولا طويلا عن " رسالة فرنسا التبشيرية " مع المارشال بيجو الذي كان يصغي إليه بكل اهتمام ، أنهى كلامه قائلا : " إن الحرب التي تقوم بها في أفريقيا إنما هي حلقة من حلقات الحروب الصليبية " .

ولقد حاول هذا المبشر المتحمس أن يبرر بكل بمهارة ما تميزت به " حملات إفريقيا من وحشية " ،متذرعا بأن الله " من أسمائه الحسنى أنه إله الجيوش وإله المعارك " و أن المجتمعات لا تتقدم إلا بالدماء والدموع " غير أنه استدرك في صفحة أخرى من الكتاب مؤكدا بأنه ليس ممن " يؤمن بالخرافات و الأباطيلَ " لأنه على يقين بأن" الهدف الذي نسعى لتحقيقه من حروبنا في إفريقيا لهو أسمى وأقدس من الهدف

الذي نسعى لتحقيقه من حروبنا في أرويا" وأن المسألة تتعلق " بقضية روحية هي قضية الحضارة، وقضية التعاليم المسيحية الخالدة التي الله لها النصر المؤزر في هذه الدنيا وقيض لها فرنسا لتكون لها سندا قويا ." (18).

ثانيا اللغة:

آثار موقف الأشرف من اللغة كثير من الجدل والنقاش ففي الوقت الذي يرى فيه البعض أن هذا الموقف كان نتيجة لعوامل تاريخية وسسيولوجية وحتى ثقافية جعلت من صاحبه يعتبر اللغة الفرنسية أحد المقومات الأساسية للامة الجزائرية الجديدة, نجد البعض الأخر يعتبر انه هذا كان نتيجة لاستلاب معرفي وغربة ثقافية لم يعاني منها الأشرف فحسب و إنما شاركه في العديد من المثقفين بالغة الفرنسية, وبحسب هذا الموقف دائما فان البعض من هؤلاء المثقفين عاد إلى لغته الأم وهي العربية بالخصوص وان لم يستطع الكتابة بها , أو أنه كتب بها بعض أعماله المتأخرة كمالك بن نبي ومالك حداد، فان الأشرف أصر على موقفه هذا رغم ما فيه من تناقض عندما كان من الأوائل الذين حاربوا الاستعمار الفرنسي بكتاباته وبنضاله أيضا ومع هذا عمل على إبقاء هيمنته الثقافية بدعوته إلى المحا فضة على اللغة الفرنسية بل وتقديمها على اللغة العربية من أستاذ الأدب العربي.

والحقيقة أن هذا الموقف يبدوا في البداية مستغربا ومتناقضا بالنسبة لمناضل ومفكر مؤد لج, الىأن المتمعن في تحليلات الأشرف وقرأته وحتى ثقافته لا يجده متناقضا مع نفسيته وطبيعته بل ويجده متجانسا ومتوافقا معهما, فهو في البداية يري أن النخبة الجزائرية وجدت نفسها مضطرة لتعلم اللغة الفرنسية المفروضة عليها فرضا,خاصة وان العربية أصبحت محاصرة بل وممنوعة أحيانا. وفي هذا يقول الأشرف:" من الأسباب التي جعلت الاهالى يلازمون موقف الحذر من التعليم, رغم ندرته واقتصاره على الصفوة المختارة من أبناء الطبقة العليا...صمود الثقافة العربية نسبيا في بداية الاحتلال...اختطاف الشبان الصغار أبناء زعماء المقاومة المعروفين وإرسالهم إلى فرنسا لانخراط في المدارس الثانوية العسكرية...تعميد وتنصير الألوف من الأطفال الجزائريين اليتامى بالغصب والقوة"(19).

ويذهب إلي القول أن الجزائر احتفتضت باللغة العربية المكتوبة وبلغاتها الدراجة التي لا تعتبر حسب وجهة نظره مجرد لهجات،ودون شك فان الذين انتقدوا الاشرف ركزوا على موقفه هذا الذي يسوى بين اللغة العربية الجامعة للمجتمع الجزائري الذي يقرر انه امة كاملة التكوين وبين لهجات محلية محدودة المكان ويقتصر استخدامها على جماعات صغيرة و في أماكن محددة.

في الوقت الذي يجعل من اللغة الفرنسية تمثل مقوما أساسيا من مقومات المجتمع الجزائر في حين أصبحت اللغة العربية لا تعبر و لا تستخدم إلا عن موضوعات متعلقة بالآخرة وتركت الاستخدامات الدنيوية للفرنسية.

وعندما استعادت الجزائر استقلالها اتخذ الأشرف موقفا حذرا من استخدام اللغة العربية وتعريب التعليم تارة باسم المنهجية وعدم التسرع وتارة أخرى نتيجة لتصورات اديولوجية وثقافية ، كما تجدر الإشارة هنا إلى أن كتابات الأشرف جميعها كانت باللغة الفرنسية وهي لغة المستعمر الذي قاومه الأشرف من قبل، ويبدو انه هذا

نتيجة لموقف مبدئي وليس معرفي لكون الأشرف يحسن اللغة العربية

دون شك أوليس هو نفسه أستاذ الأدب العربي في العديد من الثانويات وحامل شهادة الليسانس في الأدب العربي.

المصادر والمراجع:

1-عبد الكريم بوصفصاف وآخرون: معجم أعلام الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين, الجزء الثاني, دار الهدى, عين مليلة الجزائر ص290.

2-محمد غالم : مصطفى الأشرف وثورة الجزائر, ضمن كتاب القيم الفكرية والانسانية في الثورة الجزائرية (1954-1962) الجزء الأول, دار الهدى ص 210.

3- معجم أعلام الجزائر:ص290.

4- محمد غالم: مصطفى الأشرف وثورة الجزائرص210.

5- معجم أعلام الجزائر:ص290.

6- مصطفى الأشرف: الجزائر الأمة والمجتمع, ترجمة حنفي بن عيسى, المؤسسة الوطنية للكتاب, الجزائر 1981م ص53.

7- المصدر نفسه, ص 13.

8-المصدر نفسه, ص5.

9- المصدر نفسه, ص5.

10- المصدر نفسه ,ص5,6.

11- المصدر نفسه ,ص42.

12-عبد المعز نصر:في النظريات والنظم السياسية,دار النهضة العربية بيروت, سنة1981م,ص17.

13- مصطفى الأشرف: الجزائر الأمة والمجتمع,ص7.

14- المصدر نفسه, ص6,7.

15- المصدر نفسه, ص7.

16- المصدر نفسه, ص47.

17- المصدر نفسه, ص50.

18- المصدر نفسه, ص51,52.

19- المصدر نفسه, ص 415.